

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الله جل جلاله كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه ، لأنه هو ذاته الرحمن ، وهو نفسه الرحيم ، ومن أعظم وأجل أيادي رحمته عز شأنه ، أنه أنزل القرآن الكريم رحمة للعالمين ، يرحمهم به في الدنيا وفي الآخرة ، ونورا يهديهم الى الصراط المستقيم ، ففيه الفرقان وفيه البيان ، وفيه الحق وفيه الفصل ، من قال به فقد صدق ، ومن حكم به فقد عدل ، ومن عمل به فقد فاز ، ومن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

والقرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا ريب فيه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك لأنه محروس بالقدرة الالهية ومصان بالأمر الرباني ، إذ تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه وتولى رعايته ، فقال وهو أصدق القائلين : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١) ، وهكذا فممنذ بداية اللحظة التي نزلت فيها أولى آياته الكريمة ، وعلى مدى هذا التنزيل المبارك ، والى آخر الزمان ، وعين الله تكلؤه وتحميه ، والعناية الربانية تلاحظه وترعاه ، ومنذ وقت مبكر وقف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كاتب للقرآن مدون له ، وبين حافظ له في صدره ، ولم تقف عقبة أمام الكتاب ، فراحوا يسجلون القرآن على كل ما تصل اليه أيديهم من عسب ولخاف ، أو من أديم ورقاع ، أو على أكتاف أو أضلاع أو أقتاب ، كذلك راح الأميون يحفظونه في صدورهم ويستأنون عليهم مهجهم وخفقات أفئدتهم .

ويوم قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولبى نداء ربه ، كان القرآن الكريم هو الأمانة الغالية التي تركها في أعناق الصحابة رضوان الله عليهم ، والوديمة الكريمة التي استأمن عليها ضمائرهم وقلوبهم ، فاحتضنوها بصدق وعزم ، وأدوها باخلاص ووفاء ، ولم يرضوا عليها بجهد ، ولم يكثرثوا في سبيلها بعقبة ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقوم بجمع المدونات

القرآنية المتفرقة ، فى صحف متتالية خشية الضياع والفقء ، بعد أن استحر القتل بالقراء فى وقعة اليمامة ، وهذا عثمان بن عفان يدرك الأمة ويجمعها كلها على مصحف واحد امام ، عصمة لهم من الفتن ، وحماية للنص القرآنى المقدس من التحريف أو التصحيف ، أو اللحن واللبس والخطأ .

ثم جاء بعد الصحابة رجال من التابعين من السلف الصالح ، ساروا على المنهج القويم ، وحافظوا على المشعل متقدا ، وأناروا به سبل الأجيال من بعدهم .



ولقد سار تفسير القرآن الكريم فى طريق طويل ، ربما بدأ ينساب منذ تلك الآونة المبكرة التى بدأ فيها رسول الله ( ص ) يدعو الناس الى الاسلام ، ويوضح لهم تعاليم الدين الجديد ، ويفهمهم ما جاء فيه من أمور ومن معان لم يعهدوا مثلها من قبل .

وعلى جانبى هذا الطريق ، وعلى مر العصور والأزمان ، نجد المصاييح المضيئة الهادية ، التى وضعها أولئك الرجال الذين حملوا على عاتقهم أمانة الفكر وأداء الكلمة ، فقاموا بتفسير القرآن وشرحه وتوضيحه للأجيال ، وتركوا لنا تفسيراتهم ، مصاييح مشعة تنير الطريق وتهدى السبيل .

على أن البحث فى التفسير وتاريخه ، أمر من العسر والصعوبة بمكان ، فطريق التفسير طريق طويل يوغل فى القدم ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة ، وليس هو بالطريق المعبد ولا هو بالطريق السهل أو الهين ، إذ لم يكن أولئك المسرون على درجة واحدة من العلم والاتقان ، كذلك لم يكونوا على قلب رجل واحد من الأمانة والاخلاص والوفاء للدين السمح ، إذ منهم من أصاب ومنهم من أخطأ ، ومنهم من كان خطؤه عن سهو أو نسيان ، ومنهم من كان خطؤه عن جهل ، أو توهم ، ومنهم من تعمد وأصر على اشاعة القتن والبدع ، كيدا للاسلام أو تأييدا لعقيدة يدعو لها أو لحزب ينتصر له .

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد فحسب ، فلقد ثارت عواصف السنين وأعاصير الزمان ، فحطمت بعض مصاييح الطريق ، وبعضها أطاحت به ، وبعضها دفنته تحت أكوام من رمال القرون ، فليس لدينا الآن من المصاييح ما يكفى لاضاءة الطريق كله ، وخاصة أول هذا الطريق ، فلقد ضاعت

التفاسير الأولى ، ولم يعد منها غير بقايا وأخبار ، لا نستطيع الاهتمام إليها أو العثور عليها ، إلا بعد أن ننقر في بطون الكتب الضخمة القدية . ونمر على السطور سطرا سطرا في كتب التفسير بالمأثور التي أفلتت من يد العاديات ، مثل جامع البيان الطبري والدر المنثور للسيوطي ، أما الأخبار فهي قليلة بل هي نادرة ، كما يشيع بينها الاضطراب ، ويضرب الغموض حولها أظنانه ، كما أنها للأسف مقدوح في صحتها ، متهمة بتهمة الوضع والزيف ويلحقها الشك والريب .

وهكذا ، فالطريق بعضه مظلم ، وبعضه فيه الضوء أو بصيص منه . وبعضه وعرج حرج ، وبعضه سهل ممهد .

والتفاسير الاسلامية الأولى للقرآن الكريم ، مصابيح ، تنير لنا أول الطريق الحقيقي الذي سارت فيه خطوات علم التفسير القرآني ، وتجلو لنا علاماته ، وتحدد طوابعه ، وتوضح دروبه التي تشعبت عنه ، كما تبين مصادره وبداياته التي انطلق منها .

وقتادة ، هو ابن دعامة بن عزيز السدوسي البصري الأكمه الضرير ، حافظ علامة ثقة ، وتابعي جليل ، ولد سنة ٦٠ هـ وتوفي سنة ١١٧ هـ ، وقد كان مقسرا للكتاب ، وله تفسير متقدم للقرآن الكريم ، ليست بين أيدينا عنه سوى اشارات غامضة . فقد ضاع هذا التفسير كما ضاعت تفسيرات مبكرة كثيرة ، وانحى أول طريق التفسير القرآني ، وضلت خطوطه ، وراحت معالمه واتجاهاته الأساسية .

وأصبحت دراسة تفسير القرآن الكريم وتاريخ هذا التفسير ، تقوم أساسا على كتاب « جامع البيان عن تأويل القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ( ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ) ، أي أنها كانت تتطلق منذ منتصف القرن الثاني الهجري ، ولم تكن لدينا الفكرة الكافية والواضحة عن حياة التفسير واتجاهاته ومناوله وسماته وعلاماته قبل ذلك الحين ، إذ أن غالبية التفاسير التي كانت قد ظهرت قبل الطبري ، ضاعت في دوامة السنين .

على أن رحمة الله سبحانه وتعالى قيضت لهذه الأمة الاسلامية رجالا جهابذة حفظوا لنا في مؤلفاتهم العظيمة كثرة كثيرة من هذه الآثار التفسيرية التي فقدتها الأجيال . ومن أهم هذه الكتب الموسوعية تفسير الطبري وتفسير السيوطي ( الدر المنثور ) وتفسير ابن كثير وتفسير القرطبي ، وغير ذلك .

كما ان هناك ايضا مجموعة كبيرة من الآثار التفسيرية القديمة فى كتب السنة والحديث وفى كتب الرجال والطبقات والتراجم وما الى ذلك .

وقد حاولت أن أجمع مادة تفسير قتادة من خلال هذه الكتب ، وألم شتاتها المبعثرة ، وأوثقها وأرتبها وأؤلف بينها ، ثم أدرس فى هذا النتاج : خصائصه ومنهجه ، وأسانيده ومصادره ، وقيمه وأثره فى تاريخ التفسير . . . لأمهد بذلك الخطى الأولى لدراسة أسس علم التفسير القرآنى دراسة أصيلة قيمة ، تضيف شيئا نافعا للتراث الإسلامى والحضارة الانسانية .

وكنت منذ البداية مقدرا تماما لصعوبة الموضوع ووعورته ومدى ما يحتاجه من مشقة وجهد وعناء ونصب ، فان جمع هذا التفسير ولم شتاته المبعثرة والمتناثرة هنا وهناك فى مختلف كتب التفسير والحديث والتاريخ والتراجم ، ليس بالأمر السهل ولا بالأمر الهين اليسر ، وانما بالكد والكبح والتفكير فى بطون الكتب القديمة ، وليس بخاف على أحد ما تتطلبه هذه الكتب القديمة من عناء ومشقة ، بكثرتها وتعددتها واختلافها وضخامتها واتساعها وتشعب مناحيها ووفرة ما فيها . . . فما بالك اذن بمن يتتبع صفحاتها وينقب بين سطورها سطرا سطرا ، ويقتفى كل كلمة وكل حرف خشية أن تفوته شاردة أو واردة ، باحثا عن أثر تفسيري معين قديم ، أو اشارة تفسيرية عتيقة .

انها تجربة فذة فى تاريخ الدراسات الإسلامية الحديثة ، أن نعمل على احياء التراث الإسلامى التليد ، الذى ضاعت كتبه ومؤلفاته منذ أكثر من ألف عام ، فنجمع شتاتها المتناثرة فى كتب التراث المختلفة المتعددة ونحققها ونوثقها ، ونرتبها ونؤلف بينها ، ونعيد هذا التراث الإسلامى المجيد مرة أخرى الى الحياة والوجود والنور .

على أننى استخرت الله فى القيام بهذا العمل ، واعتمدت عليه ولم يستطع اليأس أن يتسرب الى نفسى ، وتهيأت للعمل ، وذبت فى عملى المضى قراءة دائمة واطلاعا متصلا فى الكتب الإسلامية والعربية القديمة من تفسير وحديث ورجال وطبقات وتاريخ ولغة وأخبار وشعر . . . ودامت هذه الحال من الدأب والعمل المستمر طيلة ثلاثة أعوام . . . يعلم الله مدى ما كلفتنى من عناء ونصب . . . ثم مضى عام آخر فى الترتيب والقنسيق والأليف والكتابة . . . وأخيرا استوى البحث قائما على قسمين رئيسيين :

قسم : هو مادة تفسير قتادة نفسها ، مجموعة من كتاب تفسير الطبرى ومصنف عبد الرزاق وموثقة ومحققة التحقيق العلمى السليم ومرتبطة ومنظمة حسب آيات وسور القرآن الكريم ، بقدر ما وسعنى الجهد .

وقسم آخر : هو الدراسة التى أعدتها حول هذا التفسير ، وتحتوى على ثلاثة فصول :

تحدثت فى الفصل الأول عن حياة قتادة ، فتناولت فيه:نسبه،وقبيلته، وتاريخ مولده وتاريخ وفاته . ونشأته . وحفظه وضبطه ، وعلمه ، وشيوخه ومن روى عنهم ، ومراسيله ، وكيف كان ثقة بالاجماع ، وكيف احتج به أرباب الصحاح . ثم تحدثت عن تلاميذه ومن روى عنه ، وكذلك آثاره العلمية .

ثم تحدثت فى الفصل الثانى عن كتاب تفسير الطبرى ومصنف عبد الرزاق ، وهما المصدران اللذان نهلت منهما الآثار التفسيرية لقتادة ، فدرست منهج كل منهما فى ذكر الروايات وفى ذكر السند ، كما أبرزت مدى مساهمة كل منهما فى ذكر الروايات وفى ذكر السند ثم تحدثت عن الأسانيد الثلاثة التى دار عليها تفسير قتادة ، كما جاءت فى تفسير الطبرى ، واختصاص مصنف عبد الرزاق بالسند الثانى وحده ، ثم درست هذه الأسانيد الثلاثة ، وترجمت لرجالها الذين ثبتت عدالتهم .

وخرجت من هذا الفصل بأن تفسير قتادة - هذا الذى بين أيديكم الآن- هو تفسير تتوافر له الثقة . ويحوطه الأمان والاطمئنان ، من ناحية الأسانيد التى ورد لنا عن طريقها .

ثم دار محور الفصل الثالث على دراسة واضحة لمنهج تفسير قتادة وخصائصه : وقد تحدثت فيه عن استعانة قتادة فى تفسيره للقرآن بالقرآن الكريم ، وبالحدِيث الشريف والحدِيث القدسى وبأقوال الصحابة وكبار التابعين . كما تحدثت عن تفسيره اللغوى والبلاغى ، وعن نظراته القرآنية ، والفقهية ، وموقفه من الناسخ والمنسوخ ، والمامة الواسع بالتاريخ القديم والديانات والنحل المختلفة ، وتحدثت كذلك عن الاسرائيليات فى تفسيره ، وعن تفسيره الوعظى والأخلاقى ، وبعض نظراته العقلية الخاصة .

وأهم المصادر التي استعنت بها في عملي هذا : تفسير الطبري ، ومصنف عبد الرزاق ، ثم مصادر الدراسة والتحقيق ومن أهمها : طبقات المفسرين للداودي ، طبقات المفسرين للسيوطي ، تهذيب التهذيب ، الجرح والتعديل ، التاريخ الكبير للبخاري ، تذكرة الحفاظ للذهبي ، الأنساب للمسماني ( مخطوط مصور ) ، جمهرة أنساب العرب ، وفيات الأعيان ، هدية العارفين ، طبقات العصفري ، الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبقات الحفاظ للسيوطي ، أنجوم الزاهرة ، مرآة الجنان ، شذرات الذهب ، خلاصة تهذيب الكمال ... وغيرها .

وها أنذا أقدم للعالم الإسلامي تفسيراً جليلاً من تلك التفاسير المبكرة التي ضاعت من يد الزمن ، وقد جمعته لأول مرة ، وحققته تحقيقاً علمياً دقيقاً ، وأقمت حوله دراسة عميقة ، تكشف عن خصائص التفسير في المراحل الأولى من حياته ، وهي مراحل كانت غامضة أمام الباحثين ، لقلّة المادة العلمية عنها .

ولا أستطيع أن أجسد الكلمات التي تعبر عن مدى شكري وامتناني لاستاذي الدكتور يوسف خليف رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، والذي تكرم بإشرافه على هذه الرسالة ، وأمدني بنصائحه وتوجيهاته الرشيدة .

وأقدم أيضاً خالص الشكر والاحترام للاستاذين الجليلين الدكتور عبد الله درويش عميد كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، والدكتور النعمان القاضي استاذ الأدب العربي والدراسات الإسلامية بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، اللذين قاما بمناقشة هذه الرسالة ، وبذلا لي العون المخلص والنصيحة الكريمة .

وأثنى جميل الثناء على الشيخ الكريم / حامد ابراهيم أحمد ، الذي قدم لي كافة مصادر هذه الدراسة بأكرم يد ، أثابه الله عنى وعن المسلمين خير الثواب .

اننى فخور بهذا العمل ، وأملى كبير أن تتقبله الامة الإسلامية بالرضا والقبول ، وأدعو الله عز وجل أن يوفقنى - واخوانى الباحثين الاسلاميين - الى اتمام هذا المشروع الجليل ، مشروع احياء التفاسير القديمة الضائعة ، اعزازاً للإسلام ، وتدعيماً للحضارة الإنسانية .

والحمد لله أولا والحمد لله آخرا ٠٠٠

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال جل شأنه : « الحمد لله رب العالمين » .

والحمد لله الذى افتتح خلقه بالحمد فقال سبحانه : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » .

والحمد لله الذى اختتم كل الأمر بالحمد فقال تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

نحمده ونشكره الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،  
ونقدم هذا العمل المتواضع حسبة لوجهه الكريم ، فان يكن فيه من حسنة  
فمن الله ، والا فمن نفسى ، وحسبى أنى أخلصت نيتى وبذلت جهدى .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما  
حماتة على الذين من قبلنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به راعف عنا واعر  
لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

عبد الله أبو السعود بدر